مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 5 السنة: 2020
ص: 1163 - 1182 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

منهج الباقلاني في النقد التحليلي للنص الأدبي القديم من منظور لسانيات النص

Al-Bakillani Approach in the Analytical Criticism of Ancient Literary Text from the Perspective of Text Linguistics

د. فتوح محمود

D.fettouh mahmoud

المركز الجامعي تيسمسيلت

Centre Universitaire Tissemsilt

mahmoud.fettouh@gmail.com

تاريخ الإرسال:2020/04/19	تاريخ القبول:2020/06/16	تاريخ النشر : 2020/12/25

ملخص البحث

يعالج هذا المقال جهد العالم الأشعري الباقلاني (403هـ) في تحليله للنص الأدبي القديم والممثل في أجود ما كتبه فحول الشعراء من القصائد، ليقف عند أبيات من معلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري ويحاول من خلالهما أن يوازن بين نظمهما وبين النظم القرآني حتى يثبت أن تماسك وانسجام النص القرآني ميزة خاصة به، ليخلص في الأخير إلى أن البيان البشري ينتابه التفاوت والتباين والاختلال في التماسك والانسجام بين الجمل والتراكيب، بينما النظم القرآني فهو معجز ويعلو على غيره من أساليب الخطاب الأدبي وجميع فنون القول التي برعوا فيها، فهو يتميز بالدقة في التعبير والروعة في التأليف والبراعة في النسج، وحسن الانتقال، وجمال التكرار، والاعتدال في الإعجاز، والاستبدال داخل النظم، وهذه كلها علامات ومظاهر لصور التماسك النصي في علوم القرآن.

الكلمات المفتاح : الباقلاني، النقد، التحليل، البلاغة، التماسك، لسانيات النص.

Abstract : This article deals with the effort of Al-bakillani (403 AH) in his analysis of the ancient literary text represented in the poems of Qais and Al-Bohteri through which he tried to balance their systems and the Quranic systems in order to prove that the consistency and harmony of the Quranic text is an advantage. Finally, he concluded that the human writing is characterized by disparity and imbalance in the coherence and harmony between sentences and structures, while the Quranic systems are miraculous and superior to other literary discourse styles and all the arts of saying in which they excelled. Thus, transition, the beauty of repetition, moderation in miracles, and substitution within the Quranic system are all signs and

manifestations of the forms of textual coherence in the sciences of the Quran.

Keywords: Al-bakillani, Criticism, Analysis, rhetoric, cohesion, text linguistics.

مقدمة: تعدّ لسانيات النص حلقة من حلقات التطور الموضوعي والمنهجي في اللسانيات الحديثة، والتي تتعامل مع النص الأدبي في كليته، بحيث تقوم منهجيتها في التحليل اللغوي على أساس تجاوز نحو الجملة إلى النص بحد ذاته، أي التجاوز من النظرة الجزئية للخطاب من الوقوف عند حدود الكلمة المفردة إلى النظرة الكلية للنص، وإلى التحليل النقدي للخطاب الذي أصبح منهجا مميزا وطريقة في التحليل لتجاوز الجزئي إلى الكلي.

ولكن إذا كان هذا العلم قد نال اهتماما كبيرا من الباحثين في الدراسات اللسانيات الحديثة الغربية منها والعربية، من توضيح مفهومه وتحديد وسائله وعوامله وشروطه والسياق المحيط بالنص وعلاقته بالنص وانتهاء بوضع نماذج تحليلية توضّح هذه الأمور كلها، فإننا نجد الدراسات التراثية وبالأخص محاولة العلماء الذين انشغلوا بعلوم القرآن من البلاغيين والنحاة وأهل التفسير... أن لهم الأسبقية في ذلك، لأنهم هم الذين اهتموا ببلاغته الفريدة ونظمه العجيب، فقد كان لهم النصيب الأوفر في مقاربة النص القرآني، وذلك بتوظيفهم لكثير من العلوم والآليات والأدوات التي تحيط بالنص المقدس، وبالتالي فقد كانوا أقرب إلى النهج الذي نهجته لسانيات النص وتحليل الخطاب، ونقول إن محاولاتهم –في الحقيقة– تعدّ بداية أصيلة لنظرية لغوية حديثة لما أصبح يعرف بلسانيات النص أو نحو النص، وذلك لاعتمادها العلاقات والروابط بين الكلمات، والوقوف على بنية الكلام ونظمه، وهي قضايا عينها في نحو النص، لأنها توحي بالتماسك والحبك والسبك والاتساق في النص، لأن البلاغة أدخلت منذ القديم علوم الآلة التي هي أدوات وتقنيات لتحليل النص، لأن "كل مفردات هذا العلم في صميم علم تحليل النص، ابتداء من مقدمة الفصاحة والبلاغة، وانتهاء بأصغر فن بديعي، كل هذا وسائل وأدوات تعين على استكشاف جوهر النص، ...واعلم أن كل نظر في المباني لا غاية له إلا النفاذ إلى المعاني"[1].

فلسانيات النص تحاول أن تكشف بلاغة الخطاب، وذلك من خلال الوقوف على "جمالياته وقيمته البلاغية المتجددة التي لا يقوى نحو الجمل المحدود على استخراجها، وأتاحت لسانيات

النص الانفتاح على مجالات معرفية وثقافية مختلفة، ولم تعد دراسة اللغة منحصرة في دائرة الأصوات والتراكيب، ولكنها في ظل لسانيات النص وتحليل الخطاب انفتحت على الأنساق المعرفية، لأن اللغات الإنسانية تمثل مرتكزا رئيسا للثقافة ومرآة حقيقية لها، فانفتاح النسق اللساني على ميادين معرفية مختلفة، يمكن من استيعاب النص وتناوله بالدراسة الشاملة التي تحيط بأجزائه ومؤلفاته"[2].

وتعد محاولة الباقلاني (ت403هـ) من بين أبرز الدراسات العربية التراثية التي اهتمت بالنص بحد ذاته باعتباره وحدة كلية متماسكة، وبخاصة في تمعنه في نصوص القرآن الكريم ومحاولة فهمها من خلال تقديم الأدوات والآليات لقراءة نصوصه، قراءة منضبطة بعيدة عن الغلو والانحراف، ومحاولة موازنتها مع النصوص الأدبية التي أبدعها البشر وعدّت أجود ما كتبه الفحول من الشعراء، والممثلة في المعلقات الشعرية، ليكشف من خلالها براعة نظم النص القرآني وتماسك وانسجام نصوصه وتفاوت واختلال نصوص البيان البشري.

وتحاول هذه الدراسة أن تقف عند جهده التراثي وتستنطق مناهج لسانيات النص وتحليل الخطاب في توضيح منهجه في تحليل النص واستكشاف بنياته الداخلية، والوقوف عند بلاغة تماسك النص القرآني وجماليات انسجام عناصره التي توضح المعايير النصية الوافية، وذلك من خلال تركيزه على معانيه الكلية التي عجزت عنها لسانيات الجملة وحددها نحو النص في استكشاف بيانها.

أولا: منهجه في نقد النص الأدبي:

معلوم أن النص الأدبي هو الأصل والمنطلق الأساسي في القراءة النقدية، وإن الحكم النقدي يأتي تتويجا لهذه القراءة، وإن القراءة النقدية للعالم التراثي الباقلاني للنصوص الأدبية جاءت عملية معكوسة، بحيث نجده يصدر أحكاما نقدية مسبقة تظلم النص الأدبي وتقصر من حقه من حيث جمال أسلوبه وبراعة تراكيبه، ليثبت من خلاله أن إعجاز نظم القرآن يعلو على غيره من أساليب الخطاب الأدبي عند العرب وجميع فنون القول لديهم، فاعتمد على منهج الموازنة بين القرآن الكريم ومختلف الأجناس الأدبية من النثر بمفهومه الواسع _ما تضمنه من خطب الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه ورسائله، وخطب الخلفاء الراشدين والصحابة رضوان الله عليهم وأقوال البلغاء وكتابات الفصحاء _، والشعر العربي، ليعرف الفرق بينها وبين الكلام الصادر "من الربوبية، ويبيّن عن وروده عن الإلهية"[3]، فيتضح له أن البيان الإلهي نظما وبلاغة وفصاحة يفوق قدرة البشر،

وينصحهم إلى التأمل في معانيه ودلالاته بقوله:" ثم انظر _بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل_ في ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة"[4].

وقد كان الشعر العربي أكثر حظا للنقد، وأوفر مكانا للحضور في كتاباته، باعتباره النموذج المميز الذي نال من جهده النصيب الأوفر للموازنة بينه وبين القرآن الكريم، ليكتشف أن التفاوت البيّن سمة البيان البشري، ويعدّه مدخلا مهما لمعرفة استواء البيان القرآني المعجز الذي لا اختلاف ولا تفاوت فيه، ويثبت أن نظم القرآن خارج عن قوانين الشعر ومغاير له[5].

ولم يكن الشعر العربي النموذج الوحيد للتفاوت لدى الباقلاني، بل كان لمختلف الأجناس الأدبية حضورا في نقده، لأنه يدخل عنده في اللمسة الآدمية، بينما نظم القرآن يخلو من هذا التفاوت والتباين، يقول:"فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمي منهاج، ولجملته طريق، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت نظرت إلى نظم القرآن نظرة أخرى، وتأملته مرة ثانية فتراعى بُعدَ موقفه وعالي محله وموضعه، وحكمت بواجب من اليقين، وثلج الصدر بأصل الدين"[6].

وقد بيّن سر اهتمامه البالغ بالشعر العربي وموازنته بالقرآن الكريم بعد ما انهى من الموازنة بين القرآن والفنون النثرية من الرسائل والخطب...، قال مخاطبا:"فإن خُيّل إليك أو شبه عليك، وظننت أنه يُحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن، لأن الشعر أفصح من الخطب، وأبرع من الرسائل، وأدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات... وسوّل إليه ألشيطان أن الشعر أبلغ وأعجب، وأرق وأبرع وأحسن الكلام وأبدع، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين، وكلام بين المحققين"[7].

ومن بين النماذج الشعرية التي وقف عندها الباقلاني في نقده التحليلي، هي أبيات من معلقة امرئ القيس التي مطلعها (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)، وجُل قصيدة البحتري التي مطلعها:(أهلا بذلكُم الخيال المقبل)، وإن هذا الاختيار لهاتين النموذجين لم يكن عفويا، بل لها دوافع وأسباب مهمة، منها ما يرجع إلى نظم القصيدة، وآخر إلى ناظمها، فمعلقة امرؤ القيس أجمع عليها كل النقاد أنها من أجود وأحسن ما كتب فحول الشعراء العرب آنذاك، كما أن صاحبها عدّ واحدا من الشعراء الموصوفين بالتقدم والبراعة، وله السبق في الكثير من المعاني التي

ابتدعها واتبعه فيها كثير من الشعراء[8]، هذه هي من بين الأسباب التي دعت بالباقلاني إلى اختياره كنموذج تحليلي، وقد وصف عمله الشعري وشخصه بقوله:"متفق على كبر محلها، وصحة نظمها، وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها، مع كونه من الموصوفين بالتقدم في الصياغة، والمعروفين بالحذق في البراعة"[9].

فقد اعتمد في منهجه النقدي للنصوص الشعرية على الإشارة على مواطن الخلل والقصور التي تنتاب النظم البشري، محاولا من خلاله نفي الكثير من علامات الجودة والحسن التي تتميز بها هذه القصائد، ليخلص في الأخير على إثبات تفوق إعجاز نظم القرآن الكريم وتفاوت نظم وتأليف البشر الممثل في أجود ما كتبه فحول شعراء العرب من معلقة امرئ القيس وشعر البحتري، وقد لخص منهجه في ذلك بالكشف عن "مواضع خللها وعلى تفاوت نظمها، وعلى اختلاف فصولها، وعلى كثرة فضولها، وعلى شدة تعسفها، وبعض تكلفها، وما تجمع من كلام رفيع، يُقرن بينه وبين كلام وضيع، وبين لفظ سوقي يقرن بلفظ مملوكي"[10]، حتى يثبت أن تماسك وانسجام النص القرآني ميزة يتميز بها على غيره من النصوص الأدبية التي عرفها العرب وبرعوا في تأليفها وأحسنوا في اختيار تراكيبها وأبدعوا في مواضيعها، فالنظم القرآني _عنده_ يتميز بالدقة في التعبير عن المراد، وتقديم المعنى بشكل واضح، وحسن الانتقال، وجمال التكرار في العديد من المواضع، والاعتدال في الإعجاز، والاستبدال داخل النظم، وهذه كلها علامات ومظاهر لصور التماسك النصي في علوم القرآن.

ثانيا: مظاهر التماسك النصي:

1_ التكرار: هو "شكل من أشكال الاتساق المعجمي يتطلب إعادة عنصر معجمي، أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما"[11]، ومعناه أن يأتي المتكلم بلفظ ثم يُعيده بعينه أو بمعناه في البيت أو العبارة لإحراز فائدة التأكيد، وتقريره في النفس، وهو من الأساليب الشائعة في العربية وفي القرآن الكريم، واستُعْمِلَ لحاجة المتكلم إلى تأكيد معناه، وتقريره في نفوس متلقيه، حتى "قيل : الكلام إذا تكرر تقرر"[12].

والباقلاني تعرض له في معرض دفاعه عن القرآن الكريم من طرق القول ومآخذه عند العرب، مُبينا بواعث مجيء القصص القرآني متناهي المعنى ومكررا، ولاحظ أن هذا الأسلوب من "عادة العرب أن تكرر لِيُفهم عنها، ولِتَبْلغ إلى مُرادها، فمن ذلك قولهم : عَجِّلْ عَجِّلْ، ويقولون: أمرك بالوفاء

وأنهاك عن الغدر، وأمر بالوفاء هو نهي عن الغدر"[13]، لكن هذا الأسلوب من خصائص بلاغة النص القرآني؛ لأنه يُورد القصة الواحدة في أَوْفَى درجة من حُسن البيان، ثم يُعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقتضيه المقام دون خلل أو اضطراب[14].

أما إذا وقع في نص كلام البشر، فإنه ينزل من درجة بلاغة القرآن، ويُخل بمقتضيات الفصاحة ويكتنف الكلام برودة وسماحة، مما يؤدي به إلى نفور النفس في قبوله، وهذا الأمر هو الذي دعاه إلى تحليل التكرار الوارد في البيان البشري، وكانت جُلّ وقفاته حافلة برؤية سلبية تبحث فيه عن الوجه المضاد، والتي ترى أن التكرار في نص كلام البشر ما هو إلا ثقلا وزيادة يُستغنى عنها البيان، أما في القرآن الكريم فنجد فيه بلاغة الإطناب الذي لا خلل ولا اضطراب في أساليب الخطاب؛ لأن كل كلام إذا كرر في موضوع واحد لم يحافظ على فصاحته الأولى، أما القرآن الكريم فصيح في كل تكراراته المتشابهة، ومن الأمثلة التي ذكرها حول التكرار في البيان البشري ما جاء في معلقة امرؤ القيس، وذلك حينما وقف أمام التكرار الوارد في قول امرئ القيس[15] :

ويوم دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنيزةٍ فَقَالتْ:لَكَ الويلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي

تقولُ وقد مال الغبيط بنا معاً عَقَرْتَ بعيري يَا امرأ القيس فانزِلِ

وأول تكرار وقف عليه في البيتين : تكرار كلمة: «الخِدْرَ» ، يقول: "قوله:«دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنيزةٍ»، ذكره تكريراً لإقامة الوزن، لا فائدة فيه غيره، ولا ملاحة له ولا رونق"[16].

لكن محمد محمد أبو موسى رد على هذا النقد من الباقلاني، وقال عنه:"ليس للباقلاني وجه في نفي الفائدة في هذا التركيب:«الخِدْرَ خِدْرَ عُنيزةٍ»، لأنه من جليل الصنعة وحر الكلام، وذلك أن خدر عنيزة يقع بيانا للمراد من الخدر وتحديدا له، بعدما يخامر النفس ما يخامرها من لفظ الخدر، هكذا بعمومه، والشاعر يروي أقاصيص أيام له من النساء صالحات، وحين يقول في سياق هذا (ويوم دخلت الخدر) لابد أن تتشوف النفس تشوفا لمعرفة صاحبة الخدر، ولمعرفة القصة التي احتفظ بهذا هذا اللاهي كثير الأقاصيص، ولهذا يحسن أن يسكت القارئ هنا سكتة خفيفة لإشاعة هذا التشوف، وإشباع النفس بهذه المخامرة، فإذا قال(خدر عنيزة) وقع في النفس موقعا متمكنا، وهكذا كل شيء يكون بعد الاستشراف إليه"[17].

أما التكرار الثاني الذي أخذه على البيتين، تكرار كلمة:«قالت» و«تقول»، يقول:"وتكريره بعد ذلك:«تقولُ وقد مال الغبيط»، يعني قَتَبَ الهَوْدَج، بعد قوله:«فَقَالتْ: لَكَ الويلاتُ إنَّكَ

مُرْجِلي»: لا فائدة فيه غير تقدير الوزن، وإلا فحكاية قولها الأوَّل كاف، وهو في النظم قبيح؛ لأنه ذكره مرة:«فقالت»، ومرة:«تقول»، فهي في معنى واحد وفصل خفيف"[18].

وحول هذا النقد فقد رد عليه حسن المرصفي بقوله:"قالت وتقول تأدية للمعاني بعبارتها، فالقول الأول: حصل منها مرة، والثاني تكرر، ولولا ذلك ما كان يعجزه أن يقول: وقالت وقد مال الغبيط بنا معا"[19]، وأعقبه سلامة داود على رد المرصفي بقوله:"وهذا رد وجيه، لأن الأصل في العبارة أن تصور المعنى وتؤديه على وجهه بدقة وأمانة، فلما كان قولها:«لَكَ الويلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي» صدر منها مرة واحدة وانقضى أمره عبر الشاعر بالفعل الماضي (قالت) ولما كان قولها: (عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل) تكرر صدوره منها عبر عنه بالفعل المضارع (تقول) الدال على التجدد حثا على النزول عن بعيرها الذي أجهده امرؤ القيس"[20].

فهذا النقد الأدبي الذي قدمه الباقلاني حول أبيات معلقة امرؤ القيس يحاول من خلالها إغفال القيم الجمالية للتكرار في شعره باعتباره النموذج المميز في الكتابات الأدبية في العصر الجاهلي، ويجتهد من أجل تأكيد علو البيان القرآني في التكرار واختلافه وتفاوت جماله عن النظم البشري الممثل في أجود نصوصها الأدبية وهي المعلقات الشعرية، وقد ذكر"أن تكرار القصص في القرآن نوع من أنواع التحدي البلاغي، فقد أشار إلى الإعجاز البين في وقوع كلمات القرآن ومواقعها، وعرض آيات كثيرة يُشير فيها إلى هذه البلاغة الفائقة"[21]، التي لو أعادها البليغ من الأدباء لظهر على كلامه إعياء الخروج والتنقل، أو لظهر على خطابه آثار التكلُّف والتعَمُّل؛ يقول:"وإن أردت أن تتبيَّنَ ما قلناه فضل تبيُّن، وتتحقق بما ادعيناه زيادة تحقُّقٍ، فإن كنت من أهل الصنعة فاعمد إلى قصة من هذه القصص، وحديث من هذه الأحاديث فَعبِّر عنه بعبارة من جهتك، وأخبر عنه بألفاظ من عندك، حتى ترى فيما جئت به النقص الظاهر وتتبين في نظم القرآن الدليل الباهر. ولذلك أعاد قصة موسى في سُور، وعلى طرقٍ شتى وفواصل مختلفة، مع اتفاق المعنى"[22].

فالباقلاني من بين العلماء الذين دققوا النظر في الآيات القرآنية ووقفوا عند الألفاظ المفردة المكررة باللفظ داخل الخطاب، لكن في معناها غاية بلاغية يحكمها السياق، وبالتالي استنتج في ذلك أنه "ليس في القرآن مُكرَّرُ لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئاً منه تكرَّرَ من حيث الظاهر، فانعم نظرك فيه، وانظر إلى سوابقه، وإلى لواحقه لتنكشف لك الفائدة منه"[23]، من ذلك وقوفه عند قوله تعالى:﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ٧٨ ﴾[24]،

قال: فليس بتكرار؛ لأنه قيل: إن السر ما أسروه في أنفسهم والنجوى ما أبدوه وتناجوا به، ولو كان معْنَاهُما واحدا لجاز أن يذكر بلفظ مختلف، كعادة العرب الجارية حسب ما ذكرناه[25].

ويقف كذلك عند قوله تعالى:﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾ من سورة الرحمن، يقول فيها:"إنه أيضا ليس بتكرار، لأنه عدد لهم ضروبا من الأنعام مختلفة، ثم قال للإنس والجن عقيب ذكر نعمه، فبأي آلاء ربكما تكذبان، أي: بأي هذا تكذبان أم بهذا أم بهذا، فيدلُّهم بذلك على كثرة نعمه عليهم، وأنه لا ينبغي أن يكفروا ويجحدوا شيئا من ذلك"[26]

وتكثر النماذج التي خصها الباقلاني حول الحديث عن التكرار في القرآن الكريم، ووضح من خلال تحليله البياني أنه ليس بتكرار مخل كما هو موجود في الأدب العربي شعره ونثره، بل جاء في القرآن الكريم لغاية بلاغية زادت من رونق وبهاء للنص المقدس وجمالا للأسلوب القرآني.

2_ الخروج: هو: "انتقال الشاعر من فن إلى فن بمناسبة ظاهرة"[27] دون أن يشعر "السامع بالانتقال من المعنى الأول، إلا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة والملاءمة بينهما حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد"[28] .

والباقلاني سمى هذا المصطلح بمسميات مختلفة منها: «التنقل»، و«والتخلص»، و«الخلوص» و«التحول»، و«الاستطراد»، وغيرها، وكلها مصطلحات تصبُ في قالب واحد عنده، وهو «حُسن الخروج»، وتناوله في النظم القرآني، وعدَّه خاصية من خصائص أسلوبه الفذ وتصويره العجيب بالانتقال من معنى إلى معنى، أو من حالة إلى حالة انتقالا يُحرك النفس ويزيد من متابعة الخيال، دون أن يشعر المستمع بذلك الخروج الذي يخلُ بالموضوع بالتعثر والاضطراب، بل يزده متانة في النظم وجودةً في السبك، وكأنه أُفرغ في قالب واحد .

أما في كلام النص البليغ من إبداع البشر وإن أحسن وأجاد في الانتقال من غرض إلى غرض، فإن النقص والاضطراب سمة لا تفارق كلامه، ولا يستطيع دوما أن ينتقل من غرض إلى غرض "من غير أن يَبِيْن على كلامه إعياء الخروج والتنقل، أو يظهر على خطابه آثار التكلف والتَّعَمُّل"[29] .

فالشعراء مثلا إذا أرادوا أن يبحثوا في القصيدة الواحدة بمعان مختلفة، فإنَّ التشتت والخلل سمة الأغراض المتنوعة في القصيدة، وإن اسْتُعْمِلَ أدوات التخلص لسد الثغرات مثل:«دع ذا» و«عد عن ذا»، "هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد، في المجلس الواحد، فكيف لو قد

جيء بها في ظروف مختلفة، وأزمان متطاولة ؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعا، والهوة بينها أعظم اتساعاً ؟"[30].

وكان شعر البحتري مثالا حيا عند الباقلاني عن الخروج المكلف والمذموم، وذكر أنه لم يحسن الخروج إلا في القليل من المواضع، يقول:"ألا ترى أن كثيرا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيرة، والخروج من باب إلى سواه، حتى أن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحتري مع جودة نظمه وحسن وصفه في الخروج من النسيب إلى المديح، وأطبقوا على أنه لا يحسنه، ولا يتأتى فيه بشيء، وإنَّمَا اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن، وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء إلى شيء، والتحول من باب إلى باب "[31]، ثم يقول:"وعامة خروجه نحو هذا وهو غير بارع في هذا الباب، وهو مذموم معيب منه، لأن من كانت صناعته الشعر وهو يأكل به، وتغافل عما يدفع إليه في كل قصيدة، واستهان بأحكامه وتجويده، مع تتبعه، لأنه يكون عامة ما به يصدر أشعاره من النسيب عشرة أبيات، وتتبعه للصنعة الكثيرة، وتركيب العبارات، وتنقيح الألفاظ وتزويدها، كان ذلك أدخل في عيبه، وأدل على تقصيره أو قصوره، وإنما يقع له الخروج الحسن في مواضع يسيرة، وأبو تمام أشد تتبعا لتحسين الخروج منه"[32].

وقد كثرت وقفات الباقلاني في نقده لقصيدة البحتري (أهلا بذلكم الخيال المقبل)، ومن ذلك تعليقه على البيتين التاليين:

ماذا عليك من انتظار مُتيمٍ بل ما يضرُّكَ وقفةٌ في منزلِ

إنْ سِيلَ عَيَّ عن الجوابِ فلم يُطقْ رجعاً، فكيف يكونُ إن لم يسألِ

قال:"لست أنكر حسن البيتين وظرفهما ورشاقتهما ولطفهما وماءهما وبهجتهما، إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضربا من الانقطاع، لأنه لم يجر المشافهة العاذل ذكر، وإنما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت به ولا يلائمه"[33].

هذا النقد رد عليه محمد أبو موسى فقال:"هذا كلامه رحمه الله وفيه نظر، ووجهه أن قوله:(إلا أن البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم) إلى آخره، لا يعاب به البيت، وربما كان من عناصر جودته، وذلك أن هذا القطع وهذا الاستئناف وبناء الأسلوب على الالتفات والانتقال إلى طريقة المخاطبة خصوصا، كل ذلك وراءه معان كثيرة جرت في نفس الشاعر منها لجاجة العاذل وإلحاحه

على الشاعر أن ينصرف عن المنازل وألا يشغل بها، وكأنه قال له: إنها مجارة خالية ليس فيها شيء ولا تعي شيئا"[34].

فهذا النقد الذي قدمه الباقلاني في حق شعر البحتري ما هو إلا تعبيد الطريق في توضيح منهجه البياني القائم على تلاحم وتماسك النظم القرآني في التنقل والخروج من غرض إلى غرض ومن باب لآخر دون خلل أو تفاوت في البيان القرآني، على خلاف النظم الشعري الذي وجد فيه بكثرة في مدوناتهم.

بينما في تحليله البياني للإعجاز البياني فإننا نجده يستعمل مصطلح الخروج في القرآن استعمالا راقيا، حقق به مبدأ الإعجاز، وقد استطاع التدليل على ذلك في العديد من الآيات في القرآن الكريم، محققا جمالية الاستعمال، وموضحا دقة الانتقال دون انفصال، من غرض إلى غرض ومن قصة إلى قصة ومن موضوع إلى موضوع "من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل فصلا، ببديع التأليف وبليغ التنزيل"[35]

ومن أبرز الشواهد التي وقف أمامها الباقلاني ليبرز جمالية «الخروج »، هي تلك الآيات الأولى من سورة الإسراء من قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[36].

إن القارئ العادي لهذه الآيات لأول مرة، والناظر إليها بسرعة خاطفة، يظن أن هناك تباعدا بين الأحداث التي تتناولها تلكم الآيات، وإن بدا هذا التباعد من الناحية اللفظية، إلا أننا نقول: إن المتدبر في الآيات والممعن في الألفاظ والمعاني التي تُؤديها، ينفي التباعد أو التنافر إطلاقاً، وتطمئن نفسه بوجود ارتباط وتضام بين الآيات، بحيث لا يشعر المستمع بفرجة الانتقال بين أحداث القصة في القرآن، وهذا هو مَكمن سر الإعجاز . وفي ذلك يقول الباقلاني :"هذا خروج لو كان في غير هذا الكلام لتَصور في صورة المنقطع، وقد تمثَّلَ في هذا النظم لبراعته وعجيب أمره، وموقع ما لا ينفك منه القول . وقد يتبرَّأُ الكلام المتصل بعضه من بعض، ويظهر عليه التَّشْبِيْج والتباين، للخلل الواقع في النظم"[37]، فالخروج في الآية الأولى مُباين عن الثانية، إلا أن النظم القرآني أحكم شملهما في انتقال دقيق ومن يتمعن النظر فيه يجدهُ انتقالا تمَّ بين الاتساق في التعبير والاتساق في التصوير، وقال فيه:"وقد تصور هذا الفصل للطفه وصلاً، ولم يَبْنْ عليه تميزُ الخروج"[38] .

وبالتالي فإن جمال الخروج سمة البيان القرآني الذي ينتقل في النصوص بين مختلف الأغراض والموضوعات دون اضطراب أو خلل يشعر بها المتلقي، بينما في البيان البشري الممثل في جواهر الشعر، فإن الاستطراد والتنقل ظاهر للعيان ولا يخفى عن المتذوق، لأن قدرتهم في البيان محدودة.

3_ الاستبدال: هي "عملية تتم داخل النصّ، إنه تعويض عنصر في النصّ بعنصر آخر"[39]، والاستبدال صورة من صور التماسك النصي شأنها في ذلك "شأن الإحالة علاقة الاتساق، إلا أنه يختلف عنها في كونه علاقة تتم في المستوى النحوي – المعجمي بين كلمات أو عبارات، بينما الإحالة علاقة معنوية تقع في المستوى الدلالي، ويعتبر الاستبدال وسيلة أساسية تعتمد في اتساق النص، يستخلص من كونه عملية داخل النص أنه نصي، على أن معظم حالات الاستبدال النصي قبلية أي علاقة بين عنصر متأخر وبين عنصر متقدم، وبناء عليه يعدّ الاستبدال مصدرا أساسيا من مصادر اتساق النصوص"[40].

وعليه فالاستبدال في لسانيات النص يرجع "في أساسه أي ارتباط بين مكونين من مكونات النصّ أو عالم النصّ يسمح لثانيهما أن ينشط هيكل المعلومات المشتركة بينه وبين الأول"[41]، وقد "لجأ هارفج إلى الاستبدال عن طريق الأشكال البديلة كوسيلة هامة، لإنشاء الرابطة بين الجمل، وشرط الاستبدال في النصّ أن يتم استبدال وحدة لغوية بشكل آخر يشترك معها في الدلالة، حيث ينبغي أن يدل كلا الشكلين اللغويين على الشيء غير اللغوي نفسه"[42].

وإن منهج الباقلاني الذي استعمله في اتساق النص وانسجامه هو تركيزه في التحليل البياني على الاستبدال بين الألفاظ، والقائم عنده على الدقة الدلالية في التعبير بلفظ دون غيره من الألفاظ، وحاول من خلاله تعويض ألفاظ أخرى في مكان اللفظ القرآني في السياق نفسه من أجل معرفة دقة اللفظة القرآنية ومدى وفائها بالمعنى المراد دون غيرها من الألفاظ المرادفة لها، ليتسنى له في الأخير أنه لا يمكن أن "يهتدي إلى وضع هذه المعاني بشري، وإلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنسي"[43]، وهذا ما نراه في تحليله البياني للاستبدال الفعلي الدقيق في استعمال لفظة «ليأخذوه» دون غيرها من الألفاظ، من قوله تعالى:﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةُۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾[44]، والتي يراها اللفظة المناسبة والأليق في التعبير عن المعنى المراد دون سواها، وإذا حاول الإنسان جاهدا على أن يستبدل هذه اللفظة بلفظة أخرى مرادفة لها، فلن

يأتي بالمعنى على الوجه الأكمل الذي أدته هذه اللفظة مهما بلغت من البلاغة مضربا، يقول:"وهل تقع في الحسن موقع قوله «ليأخذوه» كلمة ؟ وهل تقع مقامه في الجزالة لفظة ؟ وهل يسُدُ مسده في الأصالة نكته؟ لو وضع موضع ذلك «ليقتلوه» أو«ليرجموه» أو«لينفوه» أو«ليطردوه» أو «ليهلكوه» أو «ليذلوه» ، ونحو هذا، ما كان ذلك بديعا، ولا بارعا، ولا عجيبا، ولا بالغا"[45] .

فكلمة «ليأخذوه» أدت من المعاني ما لا تؤديه هذه الكلمات، فهي لفظة بديعة بارعة وعجيبة التأليف، حيث شملت معاني كل هذه الألفاظ، ففيها معنى القتل والرجم والنفي والطرد والهلاك والإذلال، وغيرها من المعاني، لكن الباقلاني لا يُبَيِّن عن السِر الذي أدى إلى اختيار الفعل «ليأخذوه» دون غيره، ويمكن أن يُلمح في الشمول الذي حواه في الدلالة "على مختلف ما همت به كل أمة برسولها من قتل أو غيره"[46]، فإذا ظَنَنْتَ أن هذه الكلمات التي ذكرناها تؤدي معنى لفظة «ليأخذوه» "فلا سبيل لك إلى الوقوف على تصاريف الخطاب، فافزع إلى التقليد، واكْفِ مؤونة التفكير"[47] .

هذه الدقة المتناهية في اختيار الألفاظ هي خاصية تميز بها نظم القرآن وقصر عنها البشر في استبدال ألفاظه بألفاظ من إبداعهم مهما بلغوا من العلم مبلغا ومن البلاغة منتهاها، لأنها تصبح غريبة في موطن غير موطنها الأصلي، بينما في منهج الباقلاني التحليلي للبيان القرآني تبدوا الغرابة في نظم القرآن ذات جمال وبهاء يستدعيها المقام، وهو ما نلاحظه في السياق القرآني الذي أورده في قوله:"والكلام الغريب واللفظة الشديدة المباينة لنسج الكلام قد تحمد إذا وقعت موقع الحاجة في وصف ما يلائمها، كقوله عز وجل في وصف يوم القيامة:﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ١٠﴾[48]، فأما إذا وقعت في غير هذا الموقع، فهي مكروهة مذمومة، بحسب ما تحمد في موضعها"[49].

هذه الغرابة في اختيار الألفاظ في القرآن الكريم تحمل حاجة بلاغية لا يمكن أن تؤديها ألفاظ أخرى، وهي ميزة النظم القرآني، ولا يستطيع البشر أن يستبدلوا ألفاظه بألفاظ معينة، لأن السياق يتطلب ذلك، ومقدرة البشر تتفاوت وتقصر وتتنوع وتختلف، فتصيب الاختيار مرة وتخطأ في أخرى، ومنهج الباقلاني في التحليل النقدي للنص الأدبي توقف عند هذه النقطة، وبين أن اختيار

الألفاظ في القرآن لا يحمل الغرابة المستغلقة التي هي صفة كلام البشر، مثل ما وجد في الشعر، ما "روي أن جريرا أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته[50]:

بانَ الخليط برامتينِ فودعوا أو كُلَّما جدُّوا لبينٍ تجزعُ

كيفَ العزاءُ ولم أجد مُذ بنتمُ قلباً يقر ولا شراباً ينقعُ

قال: وكان يزحف من حسن هذا الشعر، حتى بلغ قوله:

وتقولُ بوزَعُ: قد دَببتَ على العصا هلا هزِئتَ بغيرنا يا بوزَعُ

فقال: أفسدت شعرك بهذا الاسم؟"[51]، ولعل هذا هو الذي دفع الأصمعي إلى أن يقول في بيت امرئ القيس[52]:

وسِنٍّ كَسُنَّيقٍ سَنَاءً دعَرْتُ بمِدلاجِ الهجيز نَهُوضِ

قال: "لا أدري ما السنُّ، ولا السُنَّيق، ولا السنَّم"[53].

من خلال هذه النماذج الشعرية التي جاء بها الباقلاني يوضح لنا أن اختيار الألفاظ في النص الأدبي لفحول الشعراء يتميز أحيانا بالحسن وأحيانا أخرى بالغرابة، بينما الغرابة في التعبير القرآني فهي صفة للكمال البلاغي والإعجاز الرباني.

4_ الاعتدال: هو مبدأ جمالي كمي، يرجع إلى مدى تراكم الخصائص الأسلوبية في النص، ويرتبط بالحد الأوسط، وقد تناوله الباقلاني من مبدأ تعادل نظم النص القرآني في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة، بخلاف الحشو والإفراط والإسراف الذي هو :"أن تأتي في الكلام بألفاظ زائدة ليس فيها فائدة"[54].

وقد تعرض له الباقلاني في تحليله النقدي للقصائد الشعرية، بحيث لاحظ أن جل الوقفات التي حلل فيها الأبيات لم ير فيها الحشو إلا زيادة مستغناة عنها، لا يحتاج الكلام إلى ذكرها، ومن ذلك وقوفه عند قول امرئ القيس[55] :

فَفَاضتْ دُموعُ العَين مِنِّي صَبابةً على النَّحر حَتَّى بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلِي

قال:"استعانته بقول « مِنِّي » استعانة ضعيفة من المتأخرين في الصنعة، وهو حشو غير مليح ولا بديع، وقوله:«على النَّحر» حشو آخر؛ لأن قوله:«بَلَّ دَمْعِي مِحْمَلِي» يغني عنه ويدل عليه، وليس بحشو حسن، ثم قوله:«حَتَّى بَلَّ دَمْعِي» إعادة ذكره الدمع حشوُ آخر وكان يكفيه أن يقول:حَتَّى بلت محملي، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله. ثم تقديره أنه قد أفرط في إفاضة الدمع حَتى بَلَّ

مِحمله، تفريط منه وتقصير، ولو كان أبدع لكان يقول:حتى بل دمعي مغَانيهم وعِراصَهم، ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية، لأن الدَّمعَ يَبْعُدُ أن يَبُلَّ المِحمَل، وإنَّما يقطُرُ من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل!! وإن بلَّه فلِقِلَّته وأنه لا يقطر"[56] .

وقد رد محمد أبو موسى على نقد الباقلاني في عده لفظة (مني) حشوا، فقال:"ليس كما قال، لأن هذا القيد (مني) نص على أن فيض الدمع منه، هذا وإن دل عليه السياق إلا أن النص عليه يكون أوقع، لأنه يشبه أن يكون رأس المعنى، لأنه إحضار لنفسه الشاجية، ونص على ذلك الذات الحزينة اللاهفة، ومثله قوله تعالى:﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ٤﴾[57]، لا ريب أن السياق دال على أن وهن العظم منه، لاهـ لا يعقل أن يكون المعنى وهن العظم من غيري، مع قوله بعد ذلك ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤﴾، وقد سبق هذا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾[58]، فطرفا الكلام يكشفان المراد جهارا، ومع ذلك ليس الكلام في غنية عن هذا القيد (مني)؛ لأن هذا القيد أفاض على الكلام فيضا من عميق إحساسه صلوات الله وسلامه عليه بالوهن والضعف"[59].

ويقف كذلك أمام الحشو الواقع في أبيات البحتري[60] :

ما الحُسْنُ عندكِ يا سُعَادُ بمُحْسِنٍ فِيما أتاهُ ولا الجمالُ بمُجْمِلِ

قال:"قوله في البيت الأول:« عِندكِ» حشو، وليس بواقع ولا بديع، وفيه كُلْفة[61] .

وقد ذكر السيد أحمد صقر أن الباقلاني لم يُصب في تحديد مُراد الشاعر، وقد ضَّلت عنه معنى أبياته "ولست أرى رأيه في أن كلمة «عندكِ» قد وقعت حشوا متكلفا. ليست بواقعة ولا بديعة، وإنَّما هي في هذا المقام قد وقعت موقعها الطبيعي البديع، ولم يجتلبها التكلف حشواً لا يغني غناءه في تأدية المعنى، وإنَّما هي أصلية في أصل المعنى، ولا يؤدي معناها غيرها"[62].

ويقف إلى جنبه محمد أبو موسى، بقوله:"ومن الغريب أن يقول الباقلاني إنها حشو، وهي معقد معنى البيت، وانظر إلى الكلام في غيبتها:«ما الحُسْنُ يا سُعَادُ بمُحْسِنٍ» تجده كلاما تاما عن مطلق الحسن، وقد أدرك الشاعر أهمية هذه الكلمة فوضعها موضعها يفصح فيه عن معنى جليل؛ لأنه قدمها على متعلقها «بمحسن» فأفاد ذلك الاختصاص الذي هو معنى البيت، لأن تحرير المعنى هو الحسن عندك خصوصا ليس بمحسن، بخلاف الحسن عند غيرك، فإنه قلما يظن بالإحسان"[63] .

وعلى كُلٍّ؛ فإن الباقلاني ينظر لأجود الأبيات الشعرية على أن فيها كثرا من الحشو والإسراف وزيادة في المعنى الذي لا حاجة للبيان بها ، وأن وروده في الكلام يكون دائما غثا بالمعنى المذموم، ومُثقلا بالمعنى المراد الذي يؤديه، إضافة إلى التشوهات التي يحدثها هذا اللفظ في زيادته.

ولولا أن الأمر اقتصر على نقده الأدبي في إيراده شواهد الحشو المذموم لما كان في الأمر غرابة، ولكن الغريب في الأمر أن جل الوقفات التي بسط نظره فيها، لم ير في الحشو إلا ثقلا وزيادة مستغناة عنها، لا تخدم المعنى، مع العلم أن الأمثلة التي ذكرناها آنفا قد جاء الحشو فيها لغايات جمالية، وأدى فيها اللفظ المحشو دورا بلاغيا _ كما وضحنا _ زاد به البيت رونقا وجمالا.

وربما هذا التحامل على الشعر محاولة منه على تبيين رفعة بديع نظم القرآن عن نظمهم، هذا الذي دعا به إلى الحط من قيمته ووضعه دائما الموضع القبيح، على الرغم من أن هذه القصائد من أجود ما نظم العرب، ليثبت من خلال نقده للنصوص الأدبية أن نظم النص الحكيم، يقوم على مبدأ الاعتدال بين سوره وآياته، وهي سمة لا تفارقهُ، وميزة لا ينفرد بها غيره، وقد نَوَّهَ على ذلك بقوله: "فأجل الرأي سورة سورة وآية آية، وفاصلة فاصلة، وتدبر الخواتم والفواتح والبَوَادي والمقاطع، ومواضع الفصل والوصل، ومواضع التنقل والتحول، ثم اقض ما أنت قاضٍ"[64]، ليثبت في الأخير أن هذه سمة خُصت القرآن وفردته عن غيره من كلام البشر، "وإن طال عليك تأمل الجميع، فاقتصر على سورة واحدة، أو على بعض سُوره "[65].

ولا يترك القارئ على وهمه وحيرة من أمره، وإنَّما يدعوه إلى النظر بسكون طائر وخفض جناح، وتفريغ لُبٍ، وجمع عقلٍ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[66]، ويُبينُ من خلالها اعتدال النظم في الإعجاز، وحللها تحليلا بيانيا دقيقا، واستنتج من خلالها على أنها "تشمل على ست كلمات، سنِاها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف. وهي تشملُ جملة وتفصيل، وجامعة وتفسيرا: ذكر العُلوَّ في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء، وإذا تحكَّمَ في هذين الأمرين، فما ظنك بما دونهما ؟ لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم، والقلوب لا تقرُ على هذا الجور"[67].

وبهذا يتضح لنا من خلال تحليل الباقلاني البياني والنقدي أن نظم نص القرآن يخالف نظم نصوص كلام الآدميين في الاعتدال، لأنه يرى أن الاعتدال خاصية في النظم القرآني، وأنه معجز في كل آياته وسوره، قصارا كانت أو طوال، بينما في الشعر _كما بينا_ فإن الحشو والتكلف والإسراف وسآمة النفس في تلقيه قد وجدت فيه وفي العديد من المواطن، ولكن هذا النقد والتحامل رد عليه كثير من النقاد المعاصرين، وأثبتوا أن الأبيات الشعرية سالمة من الحشو والاسراف، والباقلاني نقدها حتى يبين أن الاعتدال في نظم القرآن سمة خاصة به فوضعه الموضح القبيح.

خاتمة: نخلص في نهاية هذه الدراسة إلى جملة من النتائج نوجزها في النقاط التالية:

_ إن المتأمل في أعماله النقدية للنصوص الأدبية يجد أن منهجه النقدي التحليلي ينطلق من منهج الموازنة الذي يعتمد على مبدأ نفي قضية ليثبت بها أخرى، وهو ما لمسناه في نفيه لأجود ما نظمه فحول الشعراء من المعلقات، ليثبت به إعجاز نظم القرآن.

_ احتل النقد مكانة مميزة في تحليل الخطاب الأدبي لديه، غير أن هذا العمل اتسم بالقصور نتيجة جمعه بين علمين: النقد الأدبي وعلوم القرآن، وهذا ما سبب له الخلل في فهم النصوص الأدبية وموازنتها بالنظم القرآني نتيجة غياب الموضوعية والحيادية في قراءتها، وإصدار أحكام نقدية قبلية مجحفة وذوقية لا جمالية عقلية، معدة في ذهنه على النصوص الأدبية أحيانا، وأخرى نقد ضبابي لا يتضح معناه بدقة، بل توظيفه عبارات عامة غير واضحة في مؤداها ودلالتها، ولا يفهم مقصودها إلا صاحبها.

_ إن المنهج النقدي الذي استعمله في تحليله للنص الأدبي كانت نتيجة مسلمة بها وحتمية، وهي أن القرآن الكريم معجز بنظمه المحكم وبلاغته البارعة وتأليفه المبهر، وأنه غير مطالب بإثبات ذلك بالبراهين والحجج.

_ لقد اعتمد في الخطاب النقدي على التأويل الذوقي والنقد الذاتي في قراءة النصوص أكثر من اعتماده على تأويلات عقلية والنقد الموضوعي، وهذه الأخيرة لها فوائد وغايات لا يمكن إغفالها أو تجاهلها في قراءة النص الأدبي، لأن إقناع القارئ لا يكون بالتعاطف الوجداني مع النص، بل يحتاج إلى قوانين منطقية وأدلة موضوعية تحكم اللغة.

_ إن اجتهاده المبالغ في نقده للنص الشعري لم يكن في محله، لأنه تحامل كثيرا على الشاعرين وظلمهما ظلما مبالغ فيه، فقد تنكر لمحاسن القصائد الشعرية باعتبارهما من عيون الشعر، وتعسف في نقده بشكل واضح لما احتوت عليه من البيان والبديع والمعاني الدقيقة التي اقتفى الشعراء آثارهم وساروا على نهجهم، بالرغم من تصريحه أنه سيقف على ما في القصائد الشعرية من كلام رفيع ولفظ ملوكي، إلا أن ذلك بقي في إطار الكلام النظري ولم يشفعه النقد التطبيقي.

_ لقد اهتم باللفظ داخل النص القرآني على عاتق الجملة باعتبارها النسق الذي يجعل التماسك الشديد بين أجزاءه المشكلّة للنص، وهذا عين ما تبحث فيه اللسانيات الحديثة، بحيث نجده يخرج النص القرآني في قالب مترابط ومتماسك، وذلك بعدّه اللحمة التي تجعل من قضاياه برهانا معجزا في شكل قالب واحد هو النظم الذي شمل التماسك النصي العجيب، وهو ما بيّنه في نقده التحليلي من خلال الموازنة التي عقدها مع عيون الشعر العربي، وأثبت من خلالها استواء البيان القرآني الذي فاق به قدرة البشر، فهو يعلو ولا يُعلى عليه، وبالتالي فقد أعطت دراسته للنص القرآني بعدا متماسكا، من حيث التكرار والاعتدال وحسن الخروج والاستبدال، وغيرها من قضايا اللسانيات النصية التي تثبت براعة النسيج والتركيب والاتساق والسبك والرصف والتضام للنظم العجيب الذي يدل على وحدة كلية متكاملة للنص القرآني، بخلاف _حسب اعتقاده_ الخلل والاضطراب والتفاوت في نصوص البيان البشري الممثل عنده في عيون الشعر من معلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري.

هوامش:

[1] محمد محمد أبو موسى: قراءة في الأدب القديم، مكتبة وهبة، القاهرة مصر، ط3، 2006م، ص14.

[2] عبد الرحمن بودرع: نحو قراءة نصية في بلاغة القرآن والحديث، دار الكتب القطرية، قطر، 2013م، ص31.

[3] إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، ط3 ، 1971م ، ص176.

[4] إعجاز القرآن، ص136.

[5] إعجاز القرآن، ص76.

[6] إعجاز القرآن، ص137.

[7] إعجاز القرآن، ص50.

[8] ينظر: ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج1، دار المدني بجدة، السعودية، دط، دت، ص55.

[9] إعجاز القرآن، ص154.

[10] إعجاز القرآن، ص216.

[11]- الخطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1991م، ص24.

[12]- الزركشي : البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث ، القاهرة مصر ، ط3 ، 1384هـ/ 1984م ،ج1، ص 10 .

[13]- نكت الإنتصار لنقل القرآن، ص212.

[14]- ينظر: الباقلاني: إعجاز القرآن، ص 190 .

[15]- ديوانه ، ص 27-29 .

[16]- إعجاز القرآن ، ص 166 .

[17] محمد محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، ص295.296.

[18]- إعجاز القرآن ، ص 166 .

[19] حسين المرصفي: الوسيلة الأدبية، ج2، ص443.

[20] سلامة داود: نقد الشيخ المرصفي للعسكري والباقلاني وابن خلدون، ص62.

[21]- محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، ص 168 .

[22]- إعجاز القرآن ، ص 190 .

[23]- ابن الأثير : المثل السائر ، ج3 ، ص 08 .

[24] سورة التوبة، الآية78.

[25]- نكت الإنتصار لنقل القرآن ، ص215-216 .

[26] الانتصار للقرآن، ص807.

[27]- زكي مبارك: الموازنة بين الشعراء، ص185 .

[28]- شمس الدين محمد بن الحسن المعروف بالنواجي: مقدمة في صناعة النظم والنثر، ص59 .

[29]- إعجاز القرآن، ص191 .

[30]- عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص144 .

[31]- إعجاز القرآن، ص38 .

[32] إعجاز القرآن، ص227.

[33] إعجاز القرآن، ص224.

[34] محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، ص329.328.

[35] إعجاز القرآن، ص190.

[36]- سورة الإسراء، الآية 1-4 .

[37]- إعجاز القرآن، ص209، 210 .

[38]- نفسه، ص210 .

[39] محمد خطابي: مدخل إلى لسانيات النص، ص19.

[40]محمد خطابي: مدخل إلى لسانيات النص، ص19.

[41]روبرت دي بوجراند، النصّ والخطاب والإجراء، ترجمة تمّام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998 ، ص 300.

[42]برند شبلنر، علم اللغة والدراسات الأدبية، ترجمة محمود جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، 1987، ص 192.

[43] إعجاز القرآن، ص198.

[44] سورة غافر، الآية5.

[45]- إعجاز القرآن ، ص197 .

[46]- محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، دط ، 1948م ، ج24 ، ص85 .

[47]- إعجاز القرآن ، ص198 .

[48] سورة الإنسان، الآية 10.

[49] أعجاز القرآن، ص177.

[50] جرير: ديوانه، شرح محمد بن الحبيب، تحقيق نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، القاهرة مصر، ط3، دت، ج2، 910.909.

[51] عجاز القرآن، ص178.177.

[52] امرؤ القيس : ديوانه، ص76.

[53] إعجاز القرآن، 211.

[54]- أسامة ابن منقذ : البديع في البديع في نقد الشعر ، ص 209.

[55]- ديوانه ، ص 25 .

[56]- إعجاز القرآن ، ص 163-164 .

[57] سورة مريم، الآية04.

[58] سورة مريم، الآية02.

[59] الإعجاز البلاغي، ص291.

[60]- ديوانه ، ج2 ، ص316 .

[61]- إعجاز القرآن ، ص 223 .
[62]- مقدمة إعجاز القرآن ، ص 83 .
[63]- الإعجاز البلاغي ، ص 317 .
[64]- إعجاز القرآن، ص193 .
[65]- نفسه، ص193 .
[66]- سورة القصص، الآية 04 .
[67]- إعجاز القرآن، ص193 .